

سلكتها التجارة من جنوب أوروبا إلى أواسطها :-

كان من أهم نتائج الحروب الصليبية. أن تطاعت أوروبا إلى خيرات الشرق ، وعملت على الحصول على نفائسه وما فيه من كنوز غنية . منذ ذلك الوقت رغب الأوروبي في اقتناء حرير الصين والموصل ، وشاش الهند وجواهرها ، وعطور بلاد العرب ، وتوابل جزائر الهند الشرقية ، ولآلىء فارس ، فتوكدت أواصر الصلات التجارية بين أوروبا وآسيا ، وتولى نقل هذه المنتجات الآسيوية إلى أوروبا تجار شرقيون : معظمهم من العرب ، رحلت تجارتهم ، وأثروا من ورائها ثراء عظيما .

طرق الشرق

كانت منتجات الشرق تسلك في طريقها إلى أوروبا طرقا مختلفة : أشهرها أربعة :

أولها - الطريق الباقي إلى الآن منذ القرن الثالث عشر ، من الهند إلى سواحل الغربية ، مارا بالبصرة على الخليج الفارسي إلى بغداد ، بطريق شط العرب ونهر دجلة . وكان التجار يصعدون في دجلة من بغداد إلى نحو الموصل ، ثم يقطعون سهل الجزيرة مغربين إلى وادي نهر الأرنؤ (العاصى) ، ثم إلى أنطاكية وسالوقية على بحر المشرق (الأبيض المتوسط) .

ثانيها - هو هذا الطريق بينه إلى نحو الموصل ، ثم يسلك التجار طريق الهضاب العالية : من أرمينية وآسيا الصغرى شرقا ،



في العصر الوسطى

بلاد الفرس

بلاد العرب

من الشرق لا تضي

إلى ميناء طرايزون ؛ حيث يشرفون على أوروبا .

ثالثها - من البصرة بطريق الفرات ؛ إلى نحو مدينة بابل ، ومنها تكون الطريق برية إلى تدمر في صحراء الشام ، ثم إلى دمشق ؛ ومنها إلى بيروت ، أو صور ، أو صيدا ، أو يافا ، أو غيرها من مدن فلسطين ؛ ثم إلى أوروبا .

وكانت بغداد للطريقين الأولين مركزا مهما جدا ؛ حيث كانت تجتمع فيها غلات : بلاد العرب ، والعجم ، والهند ، ومصر ، وآسيا الوسطى ؛ كما كانت مدينة صناعية كبرى ، اشتهرت بالمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية ، ثم البضائع الذهبية والفضية (المقصب) ، والجلود ؛ وكأنها ورثت بابل في غناها وعظمتها الصناعية والتجارية .
رابعها - من الشرق الأقصى ، وكان بحريا : من الهند إلى عدن ، ثم يجتاز البحر الأحمر إلى نقطة كانت تنقل منها البضائع إلى النيل ؛ وبوساطة هذا النهر كانت تنقل إلى القاهرة . وكان بين القاهرة والاسكندرية جدول طوله مئتا ميل ، (ولعله كان في موضع رياح البحرية وترعة الخطاطبة) .

وأهم المنتجات التي تسلك هذا الطريق ؛ كانت غالبا : التوابل ، والسكر ، والأحجار الكريمة ، وأنواع الطيب ، والصمغ ، والزيت ، والقطن ، والحرير .

وكانت قوافل سورية تجتمع في دمشق ، التي كانت كبغداد تجارة وصناعة . ومن صناعاتها ؛ سرج الخيل وعددها ، والأدوات

الحربية ، والأساحة - وبخاصة السيوف ، والخناجر ذات المقابض
المحلاة بالذهب والفضة - ثم المنسوجات الحريرية (القصب)

وهناك طرق أخرى أقل أهمية من السابقة : كالمطريق من

بغداد إلى تبريز ، ثم إلى أرضروم ، ثم إلى إياس على مقربة من
الاسكندرونة ، حيث كان يجتمع التجار من جهات شتى .

ومنها الطريق من الهند إلى أوروبا ، بوساطة نهر السند ، تصعد
المتاجر فيه إلى مصب نهر « كابل » ، ومن هناك تجتاز أفغانستان
وفارس ، إلى « استراباد » ، ثم إلى بحر الخزر ومنه إلى آزاق على بحر
« آزوف » ، ثم تحملها سفن البنادق وأهل جنوة إلى أوروبا ، أو تحملها
القوافل برا في بلاد روسيا إلى جنيف أو موسكو . وكثيرا ما كانت
تجتاز بضائع الطريق الأول البحر الأسود إلى « طناد » أو تنائس
على الدانوب ، ثم تنقلها قوافل أوروبا إلى أوروبا الوسطى والشمالية .
أما منتجات الصين وأواسط آسيا ، فكانت تنقل برا عن
طريقين رئيسين :

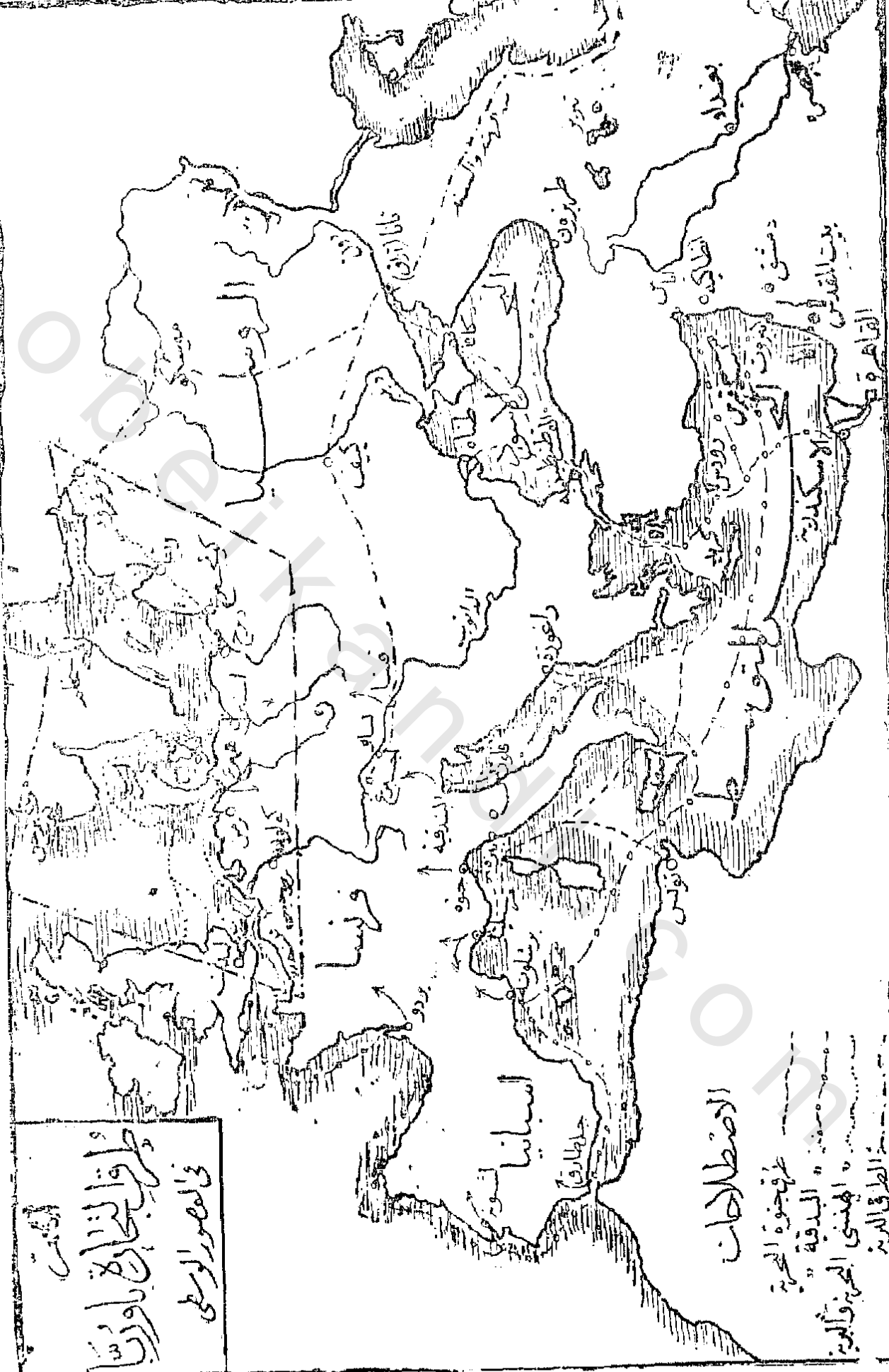
أ - بين جبال تيان شان والطاي ، قاطعة صحراء القرغير إلى
شمال بحيرة « بلكاس » ، ثم إلى بحر آرال ، ومنه إلى بحر قزوين ، ومن
ثم إلى جنوب روسيا إلى القسطنطينية .

ب - في حوض « تاريم » بين تيان شان وكون ان ، عن طريق
كشغار وبخارى ، ومنها إما إلى :

(١) هرمز أو البصرة ، ثم الاسكندرية . أو عن

(٢) طريق طوران إلى بغداد ، ومن ثم إلى حلب ، ثم إلى

خريطة لجزيرة مالديف
 في العصر الوسطى



الاصطلاحات

- خط جنوبية المحيطية
- البدقية " "
- الهندية البحرية والبرية
- الطريق الدية

القسطنطينية عن طريق أنقرة أوسكدار .

توزيع التجارة في أوروبا

كان للجمهوريات الإيطالية : من البندقية ، وجنوة ، وفلورنسة وبيزة — مقام عال في التجارة بعد إغارة « الهون » في أواخر القرن الخامس الميلادي . وامتازت جمهوريات إيطاليا بفضل موقعها الجغرافي على سائر البلاد ، فكانت أساطيلها تسير بانتظام إلى البحر الأسود ، وإلى سواحل مصر وسورية وأوروبا الشمالية ؛ وقبضت على زمام موانئ « الليفانت » وهي مراسي التجارة الآسيوية الآتية بالقوافل برا ، والتي حدثناك عنها في الفصل السابق . فإذا حملها أهل البندقية إلى المرافئ الإيطالية ، انتقلت منها إلى أواسط أوروبا ؛ فمخرقة دروب الألب . وهكذا توطدت أركان تجارة أهل البندقية وجنوة برا وبحرا حتى أصبح معظم أسماء الجهات التي وطئوها طليانيا ، مما لا يزال أثره باقيا الآن في مثل « ليفانت » (ساحل سوريا) ، والبو (حلب) ومننت نيجرو (الجبل الأسود) ، وغير ذلك .

هذا ، وقد كانت الطرق بين أوروبا الشمالية وأوروبا الجنوبية

غالبا :

(١) بحرية — أي من مدن البحر المتوسط جنوبا ، إلى جبل طارق فسواحل أسبانيا وفرنسا ، إلى فلنדרز ومدن الهنسا . وكان هذا الطريق خاصا بتجار الحبوب كأهل البندقية ؛ لأنهم كانوا يرسلون كل سنة مقدارا كبيرا من السفن إلى جهات الشمال ، وإلى « بروجس »

أهم مدن الهندسا ، وأكبر مخازن الاستيداع لجهات أوروبا الشمالية عامة ؛ وكان لبروجس ميناء تسمى « سلويز » . يربط بينهما جدول صناعى .

(٢) برية — وعند بروجس أيضا كانت تلتقى المتاجر البحرية بالمتاجر البرية التى كانت تنقلها القوافل للسيارة من جميع جهات أوروبا الشرقية والجنوبية ؛ مجتازة أوروبا الوسطى . وكان اعتماد أكثر مدن الرين وجهات الجنوب من « أوجسبرج » إلى « كان » ؛ على ما تحمله هذه القوافل . وهناك أهم طرقها (شكل ١٠) .

(١) الطريق من البندقية إلى الرين

كانت تجتمع فى البندقية غلات المشرق المارة من مصر أو البقاع المحيطة بالبحر الأسود ؛ ولذلك كان يؤمها كثير من تجار المدن المختلفة : من النمسا ، وألمانيا ؛ رغبة فى استبدال هذه الغلات بالمصنوعات المتنوعة ، وغلات مدن الهندسا . وكان لتجار الألمان فى البندقية مخازن للاستيداع ؛ كما إلى الأجانب فى بورسعيدو الأسكندرية الآن ؛ كما كان لهم قناصل ووكلاء عديدون باغوا فى عددهم التسعين . وكانت القوافل تسير من هذه المدينة مخترقة نفق « برنر » وغيره من ممرات جبال الألب إلى الدانوب والنهيرات التى تمتد ؛ إلى مدينة « اجسبرج » أهم مراكز التجارة حينئذ ، وهى على « لنخ » أحد نهيرات الدانوب ؛ ومنها تكون الطريق مائة منجـدرة إلى « رجنسبرغ » و « فينا » ، أو صاعدة إلى « ألم » ؛ ومن هذه تكون

أهم طرق التجارة

في العصور الوسطى

بالحديث



الطريق برية إلى الرين ، ثم تكون مائية منحدرية في الرين مارة بمدنه إلى مدن الاتحاد الهنسى . وربما كان هذا الطريق بعينه هو طريق تجار الشمال إلى إيطاليا .

(٢) طريق الدانوب

كانت المدن في الطريق التجارى المهم إلى الشرق ؛ كثيرة جدا في عصر شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤ م) ، وجلها على ضفاف الدانوب ؛ وذلك مثل « رجنسبرغ » ، و « فينا » ، و « بساو » ؛ فمن الأولى كان يخرج إلى الشمال وإلى الغرب طريقان تجاريان مهمان إلى ألمانيا : يمر أحدهما بنورمبرغ وإرفوت إلى همبرغ ، والثانى يتجه بعد نورمبرغ هذه إلى مدن الرين . وهناك طريق آخر من رجنسبرغ بطريق الدانوب إلى « ترنتشين » على نهر « واج » ؛ ومنها إلى روسيا بطريق « غاليسيا » ، أى إلى « كييف » التى هى أهم مراكز التجارة الروسية . وفى هذا الطريق كانت تحمل غلات المشرق من القسطنطينية ومدن البحر الأسود : مثل الزيت ، والفواكه ، والتوابل ، والحريز ، والذهب ، والثياب المطرزة والأرجوانية ، والأسلحة الجميلة الصنع ؛ فى نظير الصادرات الأوروبية التى كانت غالبا : الخيوط المغزولة ، والمنسوجات القطنية والصوفية والمعدنية . واعلم أن « فينسيا » أو (البندقية) تدرجت شيئا فشيئا فى ترقية تجارتها ؛ حتى صارت بيدها تجارة المشرق ، وكان طريق الدانوب الأسفل من أكبر ما ساعدها على نقل هذه التجارة إلى « إجنسبرج » والمدن الداخلية الأخرى . وكانت مصنوعات

المدن الألمانية الواقعة على هذه الطرق قيمة . إذ كانت « نورمبرغ » معروفة بصناعة الزخارف ، ولعب الأطفال ، ونحوها ؛ كما أن « أجسبرج » شهيرة بالمنسوجات المتنوعة ، وغيرها من البضائع التي كانت سوقها رائجة أيام رواج فينسيا .

(٣) طريق الرين

وهناك طريق مهم آخر ، وهو طريق مدن الرين مثل : « كيلنزوبال » ، بالسير في هذا النهر صعودا إلى « شور » ؛ ثم بطريق البر من نفق « جولير » ، ووادي « البخادين وأتش » إلى البندقية ، أو من نفق « سبتيمر » ووادي « برجل » إلى جنوة . والمدن الرينية كانت منتشرة على ضفتي هذا النهر من بال إلى كلونيا . وكان موقع هذه الأخيرة جيدا جدا ؛ لأنها في أقصى الجنوب من مدن الهنسي كما أنها في الشمال الأقصى للتجارة من الرين إلى البندقية . وكانت مدن الرين قد اضطرت إلى تكوين وحدة لمقاومة الملتزمين من النبلاء والأشراف ؛ أهل الاقطاعات الذين كانوا يزعمون أن التجارة ومكاسبها إنما أوجدتها العناية الالهية لتكون ينبوعا من الغنائم لهم خاصة .

هذا ، وليلحظ أن طرق التجارة في العصور الوسطى بأوروبا ؛ لم تتبع طرق الرومان البرية نصبا ؛ بل كانت تسير فيها ، وتسير في الأنهار والبحيرات كلما أمكن ذلك .

تاريخ التجارة في مصر إلى نهاية العصور الوسطى

مقدمة : إن النشاط الاقتصادي في أى بلد من البلدان ، رهين بأحواله الجوبة والجيولوجية ، ومركزه الجغرافى ، وبعبارة أخرى متوقف على أحواله الطبيعية . وقد جاء تاريخ مصر مؤيدا لهذه الحقيقة ؛ فإن مصر غدت بفضل هذه الأحوال الطبيعية مهذا لحضارة ، هى من أغنى الحضارات القديمة المنطوية على العظمة الاقتصادية . كما أنه بسبب التقصير فى الانتفاع ، واستغلال هذه المزايا الطبيعية — قد قدر لهذه البلاد ألا تبلغ درجة الرقى ، أو الرخاء الجديرة بها .

موقع مصر :

تتمتع مصر بمركز جغرافى فذ ؛ إذ ليس بين المواقع الجغرافية فى أطراف الديناما يشبه موقع بلادنا — إلا القليل ؛ فهى فى موضع سام ، من شأنه أن يروج تجارتها ؛ وهى حلقة الاتصال بين قارتين عظيمتين : آسيا ، وإفريقية ؛ بل هى واسطة عقد قارات الدنيا القديمة ، وسبيل الصلة بين الشرق والغرب . هذا وإن إشراف مصر على البحر الأبيض المتوسط ؛ مهد العمران البشرى قديما وحديثا ، وعلى البحر الأحمر ، طريق الشرق — من شأنه أن يهين لها فرصة الزعامة التجارية ، إذ لا نزاع فى أن هذين البحرين معا يكونا أهم طريق مائى فى العالم بين الشرق والغرب . وتفضل مسير بقية البلاد التى تقع على

البحر الأبيض المتوسط من إفريقية ؛ لأن بين هذه الأخيرة وبين بلاد السودان والحبشة - الصحراء الكبرى ؛ والمواصلات فيها شاقة مخوفة بالخطر كما لا يخفى . ومما يزيد في رفعة مصر التجارية ؛ جريان نهر النيل في سهلها المنبسط ، وخلوه فيها من الجنادل والشلالات والسدود ، مما جعل الملاحة فيه سهلة . كما أن اتجاه تياره من الجنوب إلى الشمال ساعد السفن على الوصول إلى مصبه ؛ واتجاه الرياح من الشمال إلى الجنوب ، سهل لها اجتيازها وهي محملة بمختلف ما تنتجه البلاد . وجلو مصر المعتدل تأثير كبير في تجارتها ؛ فبفضل هذا الاعتدال تفتح موانئها للتجارة طول السنة ؛ فلا ينعقد ضباب فيها انعقادا تصبح معه الملاحة في خطر . وكثيرا ما أودى الضباب في غير مصر بحياة أكبر السفن المحيطية . كما أن هذه البلاد حفظتها الطبيعة من سقوط الحاج ، أو انهيار السيل : الذي يكتسح طرقها التجارية ، ويؤذن بالخراب أشهراً يقف فيها دولا ب النشاط التجاري .

نظرة تاريخية :

كان البر هو طريق الاتصال بين الأمم في العصور الغابرة . إلا أن المصريين الأقدمين فطنوا إلى ضرورة الانتفاع بالبحر في نقل متاجرهم . ويحدثنا التاريخ أن « أسرتسن الثانى ^(١) » من ملوك الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق . م) ؛ هو أول من فكر في الانتفاع بطريق البحر الأحمر ؛ حتى يصل بوساطته إلى شبه جزيرة

(١) كان يطلق عليه اسم سيزوستريس .

سينا، بل إلى الشرق الأقصى ، وأنه وصل النيل والبحر الأحمر بقناة (أو خليج) عرف في التاريخ باسم «خليج سيزوستريس». ويخبرنا المؤرخ «ديودور الصقلي» (في القرن الأول الميلادي) : أن سيزوستريس هذا قد أرسل عن طريق البحر الأحمر بعثا مصرية مساحا، يحتمل أن تكون وجهته جزائر الهند التي كانت - ولا تزال - مركز تجارة المواد الأولية اللازمة لبناء السفن . وقد كانت أيامه من أزهى عصور التجارة المصرية القديمة ، ثم أصيبت التجارة بالتحول بعده ، وظلت كذلك حتى أتيح لها «أبسينيك» من ملوك الأسرة السادسة والعشرين، و«نيخاو» في عهد النهضة المصرية (٦٦٠ - ٥٢٥ ق م) فأعادها انتعاشها.

وفي عهد البطالسة يحددنا ديودور نفسه ، وغيره من المؤرخين : أن بطليموس الثاني «فيلاذلف» (٢٨٥ - ٢٤٧ ق.م) ، جدد الخليج القديم ليوصل بين النيل والبحر الأحمر ، ويسمى هذا الخليج : «القناة الملكية» (ossa Regnum) ؛ تستمد ماءها من أحد فروع النيل بالقرب من مدينة بلبيس (بيو باسطة) ، وتتجه شرقا نحو البحيرات الملحة مخرقة وادي الطوميلات ؛ ثم تنحرف نحو الجنوب حتى تصل إلى رأس خليج السويس . والذي حدا ببطليموس إلى شق هذه القناة ؛ أن مياه النيل كانت تنساب بطبيعتها في إبان الفيضان إلى أراض منخفضة ، تتصل بالبحيرات الملحة ثم بالبحر الأحمر ، غير أن هذه القناة بمرور الزمن أهملت ؛ لأسباب أهمها :

(١) أن القناة ما كانت تصلح للملاحة إلا في زمن الفيضان .

(٢) أن كثيرا من مياهها كان يضيع بسبب التبخر والرشح .

(٣) عظم النفقات في عملية تطهيرها من الرواسب الكثيرة فيها .

(٤) انحدارها البطيء الذى ما كان يتعدى أربعة أقدام فى طول لا يقل عن تسعة وتسعين ميلا .

(٥) لم يكن طريقها مأمونا ، ولا سيما أن البدو اعتبروها نقمة لهم ؛ فقد حرمتهم من أهم موارد رزقهم الذى يفيض عليهم : من تجارة القوافل ، وتأجير جمالهم للنقل ؛ فأخذوا يعمدون على تعطيلها . ومن ثم فليس من المستغرب أن ترى بطليموس الثانى يبحث عن طريق بحرى بين البحر الأحمر والنيل ، وينشئه فعلا ، بين « قفط » والبحر الأحمر مخترقا وادى الحمامات . ويجهزه بأما كن يأوى إليها التجار وهم فى وسط الصحراء ، ويعدده بالآبار ، ويؤمنه بما شيد فيه من المعقل والمسالح ؛ حتى أصبح مطروقا وحافلا . وكان لهذا الطريق الصحراوى أثر كبير فى تعمير الصحراء الشرقية ، واستغلال مصادرها الثروة المعدنية العظيمة التى تحويها ؛ نخص بالذكر منها : الزمرد ، والزرجد ، والفروز ، وغيرها من الأحجار الكريمة .

وقد ترتب على هذه الجهود التى قام بها البطالسة ؛ أن أصبحت مصر فى عهدهم طريقا ممتازا ، بين الهند وأوروبا . ووصلت التجارة المصرية إلى بلاد العرب والهند شرقا ، وإلى إثيوبيا جنوبا ؛ فى وقت

نشط فيه كثير من الشعوب على أثر زيادة حاجياتهم، واتساع الثروات نوعاً ما . ورقى أحوالهم الاجتماعية . وقد أصبحت الاسكندرية بفضل البطالسة مركز تجارة الشرق والغرب ؛ تؤمها السفن مهتدية بناراتها التاريخية الشهيرة ، التي كانت أول نموذج احتذى في إنشاء الفنارات والمنائر في العالم . وكان موضع المنارة في الطرف الشرقى من جزيرة فاروس ؛ ولعظم ارتفاعها كانت تسطع أشعتها ليلاً من مسافة تربو على الثلاثين ميلاً ، ومكانها الآن حصن « قايتباى » .

ولما دخلت مصر في حوزة الرومان منذ (سنة ٣٠ ق . م) : عظمت تجارة الاسكندرية جداً ، وتبوأت مركزاً تجارياً عظيماً ؛ حتى عهد « جستينيان » (سنة ٥٢٧ — ٥٦٤ م) . فلما أن انقسمت الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية (سنة ٣٩٥ م) ؛ لمع نجم القسطنطينية في عالم التجارة ؛ وذلك لقربها من آسيا ؛ فسيطرت على جميع طرق القوافل الآسيوية حينئذ — وخاصة تلك التي تخترق شمال هضبة إيران ، وميزوبوتاميا (ما بين النهرين) ؛ إلى مناجم آسيا الداخلية — وكان من أثر ذلك أن قلت أهمية طريق البحر الأحمر — وخصوصاً أن الفرس أعداء الأمباطورية الرومانية الشرقية كانوا مسيطرين على هذا الطريق — فتجنبه الرومان . وأصاب تجارة مصر من جراء ذلك وهن وبوار ، وأصبحت الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندى مهددة بأخطار ومحاطة بتمكاره . وقصرت عن أن تنافس الطرق المأمونة الأخرى . وقد حاول أباطرة الرومان أن يعيدوا إلى طريق البحر

لأحمر نشاطه ؛ من غير نجاح يذكر .

فلما أن دخلت مصر في حكم العرب (٦٤١ م) ، وأصبحت جزءا من الدولة الإسلامية ؛ كانت تجارتها الخارجية لا تزال في كساد وخمول ؛ لاشتغال المسلمين بالحروب ؛ ولقيام الأسباب الأخرى التي ذكرناها . وكان نشاطها قاصرا على الاتجار مع بلاد العرب وسوريا ؛ وكلاهما كان يتطلع لمصر في سبيل الحصول على منتجاتها : من الحبوب ، والمنسوجات الكتانية .

ويحدثنا الكندي : أن قناة سيزوستريس أعيد حفرها (سنة ٦٤٣ م) في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٦٣٤ — ٦٤٤ م) . وكان الغرض الأول من حفرها تسهيل إرسال القمح إلى المدينة لتموينها ، وسميت القناة « بخليج أمير المؤمنين » ؛ تخرج من النيل عند « الفسطاط » — لا من « بلبيس » كما كانت أولا — فذلت بذلك إحدى العقبات التي كانت تترى الملاحة فيها . ولا شك أن إعادة حفر هذه القناة قد أحدث حركة تجارية ؛ إلا أنها كانت ضئيلة . وبقيت هذه القناة إلى صدر الدولة العباسية حتى ردمها أبو جعفر المنصور (سنة ٧٦١ م) ؛ ليقطع خط الرجعة على محمد بن عبد الله العلوي الذي كان ينافسه على الخلافة ، وكان مقامه بالمدينة . على أن التجارة في مصر انتعشت بعد ذلك في ظل الخلفاء المسلمين ؛ فقد حفرت قناة تعرف بقناة « شابور » (Chabur) ؛ لتوصيل الاسكندرية بالنيل . كانت تخرج هذه القناة من فرع رشيد عند فوه ؛ فوصلت ما بين

الاسكندرية ومدينة الفسطاط ، وما بينهما وبين القلزم بالقرب من موضع السويس الآن ؛ فراجت التجارة بين أمحاء مصر ، وزاد في رواجها ما امتازت به دمياط وقتئذ من المركز التجارى الممتاز ؛ إذ كانت الفوارب الخفيفة تصل إليها بسهولة وبسرعة ؛ نظرا إلى موالاة تطهير فرع النيل عندها ؛ ولم تكن تعتمد وقتئذ في تجارتها على حاصلات الشرق (كما كانت الاسكندرية) ؛ بل كان كل اعتمادها على حاصلات مصر نفسها : من قصب السكر ، والكتان ، وورق البردى وغيره .

ولما زهت في مصر الصناعة في عهد الفاطميين (٩٦٩ - ١١٧١ م) ؛ انتعشت التجارة أيما انتعاش ؛ إذ أن الصناعة خير مدد للتجارة .

علاقة مصر التجارية بأوروبا قبل الحروب الصليبية :

كانت علاقة مصر التجارية بأوروبا قبل الحروب الصليبية ، تكاد تكون هي والعدم سواء ؛ لأسباب منها :
أولا - شدة التعصب الدينى الذى كان سائدا بين المسلمين والمسيحيين .

ثانيا - أن كثيرا من الأوروبيين اعتبروا أن قوة العرب البحرية منطوية على معانى اللصوصية (القرصنة) .

ثالثا - كثرة الحروب الطائفية وما يتبعها . نضيف إلى ذلك ما كانت تصادفه التجارة من عقبات سبق أن ذكرناها . والمكاتبات

السياسية التي أرساها ملوك الفرنجة -- لا سيما شارلمان -- إلى الخلفاء المسلمين في بغداد بين سنتي (٧٩٧ ، ٨٢٥ م) من أجل المسيحيين والمهاجرين الذين أظلمهم الاسلام ؛ أكبر دليل على العراقيل التي يقابلها المسافر من غربي أوروبا إلى غربي آسيا .

ولم تتنفس التجارة إلا في أواسط القرن التاسع الميلادي ؛ حينما أطلقت حرية الملاحة ، وظهرت جمهورية البندقية وجمهورية أمالفي الواقعة على خليج سالرنو بالقرب من نابلي . واحتكرتا تجارة الليفانت (Levant) قبل الصليبيين ، ونقلتا إلى روما وأواسط أوروبا بمنتجات الشرق ونفائسه . وتوكدت علاقات هاتين الجمهوريتين التجارية مع القسطنطينية ، ومع مصر . واستطاعتا أن تحصلا على امتيازات تجارية من سلاطين مصر ؛ فكان يربط في الاسكندرية جزء من أسطول هاتين الجمهوريتين التجاري ، يقوم بنقل السلع بين الشرق والغرب . وانتفعت مصر بهذه العلاقات الطيبة ؛ فاستوردت الحديد من معامل « كرثيا » و « استريا » ، والرقيق من « القوقاز » وأقاليم البحر الأسود الشمالية ؛ بوساطة أهل البندقية .

ولما اتسعت الامبراطورية المصرية في أيام المعز (٩٥٣ - ٩٧٥ م) مؤسس الدولة الفاطمية ، وشملت كل شمال إفريقية وصقلية وبلاد الشام والحجاز ؛ أخذت تبادل التجارة ينشط بين أجزاء تلك الامبراطورية من جهة ، وبينها وبين أوروبا من جهة أخرى .

وقد فضل الأوروبيون طريق مصر عن طريق سوريا وميروبوناميا؛
الأسباب الآتية :

(١) سهولة اتصاله بالبحار المجاورة ؛ مما جعل نقل المتاجر فيه أقل نفقة من النقل بطريق سوريا . وهذا من شأنه أن يخفض من أسعار البضائع في الأسواق المصرية تخفيضا لا يمكن منافسيها من مزاحمتها ؛ بالرغم من عظم المكوس الداخلية في مصر عن سوريا وغيرها .

(٢) وفرة منتجات البلاد من : بردي ، وقصب سكر ، وكتان . . . الخ ؛ بالسوق المصرية ؛ مما لا يمكن توافره في أى سوق أخرى . وقد ترتب على ذلك أن استطاعت مصر أن تحصل على حاجتها من الأخشاب والحديد ؛ من شرق أوروبا بسهولة . تنقل هذه المواد إليها ، السفن التي كانت تتردد بانتظام على الاسكندرية ودمياط . وأصبحت مصر وقتئذ مركزا لتجارة المرور (الترانسيت) .

هذا ، وإن اتساع دائرة هذا النوع من التجارة ترتب عليه :

(١) إحداث حركة كبيرة في البلاد من أقصاها إلى أقصاها .
(٢) كان لدى المصريين دائما في كل وقت كميات عظيمة من أصناف الحاجيات الأولية ، حصلوا عليها بدون كبير عناء ، وبأثمان مناسبة .

(٣) أوجدت هذه التجارة ميدانا للعمل ، وحركة في الملاحة البحرية ، واغتنت البلاد حكومة وشعبا .

علاقتها التجارية بأوروبا في أثناء الحروب الصليبية وبعدها:

(١٠٩٧ — ١٢٩١ م).

عادت الأسواق المصرية إلى الكساد في إبان الحروب الصليبية؛ بسبب التعصب الديني. واختفى التاجر الأجنبي من السوق المصري؛ بالرغم مما في الأسواق المصرية: مما يستهوى لب الأوروبي. في ذلك العهد اضمحلت قوة العرب في البحر الأبيض المتوسط، وحلت محلها قوات أخرى استطاعت أن تثبت مركزها في أسواق العالم. وأعيد فتح الطرق البرية التجارية في آسيا. وإن التعصب الديني من ناحية أوروبا كان له أثر سيء في حالة مصر التجارية؛ إذ اعتبر الغربيون مصر ألد أعداء النصرانية، وهذا غير قيام الحروب الصليبية؛ فتحاولت مراكز أهل جنوة عن الاسكندرية إلى موان أخرى: مثل عكا، وبيروت، وطرابلس، ويافا. وترب على ذلك أن خمدت في مصر الحركة التجارية نوعاً ما — لا سيما بعد أن أصدر البابا «أنو سنت الثالث» قراراته التي يحرم فيها التجارة مع المسلمين (Saracens) — وعلى الخصوص في مواد الخشب والحديد وغيرها من مستلزمات بناء السفن الحربية. وما كان بحرؤ تاجر واحد على مخالفة قرارات البابا إلا إذا تعرض للأحرمان، أو عرض حرشته وأملأه للمصادرة. إلا أن التاريخ يحددنا أن مدد مصر من الخشب والحديد، وبقية مواد الحرب ومستلزماته — لم تنقطع بتأنا في أثناء تلك الحروب؛ فان جمهورية «بيز» التي لم تكن تشعر بكرهية عمياء نحو المسلمين، لم تشأ أن تنقيد بمثل قرارات البابا التي تقضي بمقاطعة المسلمين؛ فضربت

بقراراته عرض الحائط ، وعقدت مع مصر معاهدة سرية (سنة ١١٧٣ م) تتعهد فيها بإمداد مصر بما تحتاجه من مواد الحرب من حديد و صلب . وبعد انتهاء عهد البابا « أنو سنت الثالث » ، عادت العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا إلى الظهور . وكانت التجارة تشمل جميع المواد ، في الفترات التي تنخلل حريين صليبيين ، أما في أثناء الاستعداد للحرب فكانت تمنع عن مصر المواد الحربية ، رغبة في حرمان المسلمين من تلك العدد وإضعافهم ، وتوافر معدات النقل لدى المسيحيين ؛ لحمل الصليبيين مجهزين بعددهم الحربية إلى بلاد المشرق لينازلوا المسلمين .

ولما رأَت البندقية أن جنوة وبيزا لها المكانة الأولى والشأن الأكبر في تجارة مصر الخارجية — عملت على التقرب للمصريين ، وأمدت مصر بما تحتاجه ، ولم تمتنع عن إمدادها بمادتي الحديد والصاب وغيرهما من المواد الحربية ؛ فانتفعت مصر بهذه المنافسة العنيفة بين الجمهوريتين (البندقية وجنوة) ، وأنشأت علاقات تجارية أخرى مع مرسيليا وبرشلونة ونarbonne » بجنوب فرنسا . فزاد رواج التجارة زيادة محسوسة .

ويطول بنا الحديث إذا أردنا أن نتتبع علاقات مصر التجارية بالتفصيل ؛ مع الشركات المختلفة في أوروبا في تلك المدة .

العلاقة التجارية بين مصر وإنجلترا في القرون الوسطى : —

ويجب ألا يعزب عن ذاكرتنا أن مصر والبلاد الواقعة في شرق

بحر الروم؛ كانت متصلة اتصالا تجاريا بإنجلترا عن طريق « نربون » في أوائل الحروب الصليبية؛ فسكانت السلع تمر بمدينة « بوردو » التي كانت وقتئذ في أيدي الانجليز، ثم تتبع مجرى نهر الجارون إلى تولوز؛ ومن ثم تحمل البضائع على الدواب إلى « نربون »، ويستبدل بهذه البضائع حاصلات إنجلترا: من القصدير، والنحاس. وقد ضعفت هذه العلاقة عندما استولت فرنسا على إقليم « نربون ».

علاقة مصر التجارية مع غير الأوروبيين في ذلك الوقت :-

كانت تجارة مصر رائجة في الفترة الأخيرة من الحروب الصليبية مع موالي جنوبى آسيا الصغرى، التي عمل أمراءها من السلاجقة على تأكيد علاقات تجارية، وإنشاء صلات دينية وسياسية مع مصر؛ وذلك أن هؤلاء الأمراء خافوا على ممتلكاتهم من غارات المغول الذين ما كان يقف في سبيلهم عائق. ولما كانت مصر متطاع أنظار الأمم الشرقية وقتئذ، ولها الزعامة السياسية والقوى البرية والبحرية، وهى مركز الخلافة الإسلامية بعد سقوط بغداد سنة ١٢٥٨ م - تطاع أمراء آسيا الصغرى إلى مخالفة مصر القوية، ورحب سلاطين مصر من الأيوبيين والمماليك بهذه المخالفة؛ رغبة منهم في أن يروا سلطانهم ممتدا على ممتلكات هؤلاء الأمراء الضعاف من جهة، ومن جهة أخرى كان أملهم كبيرا في أن يجدوا حاجتهم من الأخشاب والرقيق؛ التي كانت من ضروريات القوى الحربية المصرية.

أفول نجم التجارة في مصر :-

في مستهل النصف الأول من القرن الرابع عشر ؛ باغت تجارة مصر منتهى الأخطاط والتضعضع ؛ نظرا إلى قرارات المنع والمقاطعة التي كانت تصدرها الكنيسة باستمرار ضد مصر — لا سيما بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ م — وكان غرض الكنيسة من وراء هذه القرارات ؛ القضاء على قوة مصر وعظمتها وروعتها : تلك القوة التي كانت عقبة في طريق المسيحيين لاسترداد الأراضي المقدسة، وكانت المقاطعة هذه المرة شديدة جدا ؛ نفذتها جميع الولايات المسيحية بلا استثناء . بحت التجار الأوروبيون عن منافذ جديدة — غير مصر — للحصول على المنتجات الشرقية ؛ وقد استطاعوا فعلا أن يذشثوا هذه المنافذ ويفتحوها للتجارة ؛ فقللوا بهذا من أهمية مصر كسوق مركزي للسلع الشرقية . وأشهر الموانئ والمراكز التي تحولوا إليها ؛ هي : أرمينيا ، وقبرص ، وطرابزون . وقد اختلف كل طريق بأنواع من السلع : فبينما كان الطريق الذي يمر بيمزوبوتاميا وشمال بلاد فارس ، مختصا بنقل بضائع ؛ من أمثال الزنجبيل ، والسكر اوية ، والأفاوية ، والشيلان الحريرية الجميلة ، والديباج ، والسجاد ؛ ينقلها إلى أرمينيا وطرابزون — لذا بالطريق الذي يمر شمال بحر قزوين ، ينقل حاصلات روسيا : من جلد ، وفرو ، وقح ، ورقيق ، وحرير ، ومسك . وقد نظم المسيحيون هذه المقاطعة تنظيما متقنا ، وذهبوا في تعسفهم الخاص بالمنع الى حد بعيد ؛ فألفوا قوة قوامها خمسة وثلاثون سفينة حربية ؛

بقيادة فرسان القديس يوحنا ، وبعض الفسائسة ؛ وجهتهم مراقبة
سواحل بحر الروم الشرقية ، ومنع أي معاملة تجارية مع أملاك
سلاطين مصر .

نتيجة هذه الحركة : —

ولئن كانت هذه التصرفات قد فتت في عضد التجارة المصرية ،
إلا أنها على كل حال دعت إلى فتح أسواق تجارية شرقية جديدة ،
فانتعش الشرق عامة . على أنه لا يفوتنا أن نقول إن هذا التعسف من
جانب المسيحيين كان من شأنه أن يذكي نار الحماس في نفوس
المسلمين ، فمجل فشل حملات الصليبيين .

وعلى العموم فإن أشد تعسف لاقته التجارة في مصر بسبب
حركة المقاطعة هذه — كان في الفترة التي تتراوح بين سنة (١٣٢٥ ،
١٣٥٠ م . وهذا يفسر شكوى سلاطين مصر في فبراير سنة ١٣٤٥ م ؛ من
أنهم لم يروا مركبا واحدا من مراكب البندقية طول مدة ثلاث وعشرين
سنة ، تدخل الموانئ المصرية . وزالت المصالح الأجنبية من مصر ،
وأصبحت مستودعات البضائع الأجنبية العكس كثيرة كالأماكن
الأثرية : لا حياة فيها ولا روح ، وظلت واقفة مدة ؛ تشهد العالم
أجمع على مقدار ظلم المسيحيين الأوروبيين المصريين .

إلا أنه لم يمض وقت طويل ؛ حتي تبين المسيحيون ورجال
التجارة أن البابا لم يكن يقصد من قرارات الحرمان والمقاطعة سوى أن
يضطر الأمم التجارية إلى شراء صكوك التصريح بالتجارة مع مصر :

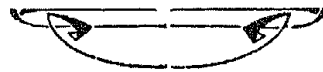
تلك الصكوك التي كانت مرتفعة القيمة جدا ، وأثرى بسببها البوابات
ثراء طائلا .

وقد كان الزمن كفيلا بتطهير القلوب من السخائم والحزازات
الدينية ؛ فخفت وطأة التعصب الديني شيئا فشيئا ، وزالت الرقابة
البحرية التي قام بها فرسان القديس يوحنا .

ولم يشرف القرن الرابع عشر على الزوال ويحل القرن الخامس
عشر -- حتى انتعشت التجارة من جديد في مصر نوعا ما . ثم أصابها
الجدول ثانيا للأسباب الآتية :

(١) فتوح العثمانيين ، واستيلاؤهم على القسطنطينية واتخاذها
حاضرة لهم ، ووقوفهم في طريق التجارة الأجنبية . وبذلك تعطلت
أهم طرق القوافل الشرقية .

(٢) كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح ؛ على يد
فاسكو دي غاما ١٤٩٧ م ؛ فتحولت تجارة أوروبا والهند إلى هذا
الطريق الجديد .



ملحق

أنواع المناخ وآثاره في أحوال الناس

مقدمة : قد استعمل المحدثون كلمة « المناخ » في معنى أهوية المكان ، وما يعتد بها من حركة أو سكون ، وحر أو برد ، ورطوبة أو جفاف : في أيام السنة عامة ، أو في فصل من فصولها . وهو استعمال للكلمة في غير ما وضعت له ؛ إذ المناسج عند العرب في الجاهلية والاسلام ، هو « مبرك الأبل » . وما زال هذا اللفظ مستعملاً في هذا المعنى الأخير — حتى بين العوام — إلى الآن .

ويظهر أن المحدثين نظروا إلى أن العرب كانت تفرد الأبل بمكان لا يشاركنها فيه بقية أنواع الحيوان الأخرى ؛ لأن مزاجها يختلف عن مزاج غيرها من الحيوان ؛ فمن حقها أن تختار لها الأماكن التي تناسبها وتوافق مزاجها . فأطلقوا المناخ ، وأرادوا هواءه المناسب الموافق . ثم توسعوا في الاستعمال ؛ حتى أطلقوا المناخ على هواء أى مكان : سواء أوافق مزاج الأبل أم لم يوافق . فهذا في نظرنا أصل العلاقة التي سوغت للمحدثين استعمال المناخ في غير ما وضع له .

وإنما استعمل العرب في هذا المعنى كلمة الأقاليم ؛ إذ قسموا الأرض إلى أقاليمها السبعة : من خط الاستواء إلى القطب الشمالى ، ووصفوا أهوية كل إقليم وأهليه وأحوالهم ؛ نقلوا ذلك عن بطليموس ومن نحا نحوه من الجغرافيين القدامى الذين حدثناك عنهم . ويظهر لى

أيضا أن العرب جمعت كلمة إقليم في موضع كلمة « Klimata » (كليمتا)
 الاغريقية ، التي هي عندهم بمعنى الميل إلى ناحية القطب ، أو التدرج
 في الارتفاع من سفح الجبل إلى قمته ؛ لما يوجد من التقارب بين
 السكنتين في مخارج الحروف . ويقصد الاغريق منها أحوال أهوية
 المكان أيضا ؛ إذ كلما مال المكان إلى ناحية القطب ، فبعد عن خط
 الاستواء - نقصت درجة حرارته ، وكذلك كلما زاد الارتفاع نقصت
 درجة الحرارة . وارتفاع درجة الحرارة وانخفاضها أهم ما يعترى أهوية
 المكان ؛ إذ يترتب عليها اتجاه الرياح من المكان وإليه ؛ وبذلك يكون
 ممطرا أو غير ممطر مثلا : إما دائما وإما في بعض فصول السنة دون
 بعض ، وهكذا . . . وقد أخذ أهل أوروبا عن الاغريق هذه الكلمة
 في هذا المعنى ؛ كما أخذها العرب من قبل . وهي عند الانجليز
 « Climate » (كليمت) ، وعند الفرنسيين « Climat » (كليما) ،
 وهكذا ولعل في هذا كفاية .

أنواع المناخ

نعلم أن المناخ يرتبط بجملة عوامل : أهمها بعد المكان أو قربه من
 خط الاستواء ، وارتفاعه عن مستوى سطح البحر ، وقربه أو بعده
 من البحار ، واتجاه الرياح فيه غالبا وقوتها ، واتجاه سلاسل الجبال فيه ،
 وتعرضه للتيارات البحرية دفيئة أو باردة ، وغير ذلك . ويمكن
 ينبغي لنا أن نعرف أنواع المناخ في الدنيا عامة ؛ وقد رأينا أن نلخصها
 على هذا النحو :

(١) على مقربة من خط الاستواء ؛ ترتفع درجة الحرارة طول السنة ؛ كما تسقط الأمطار غزيرة في جميع الفصول . ومن هذه البقاع الحارة الرطبة ؛ حوض السكونغو ، وأمزون ، والجزائر التي بين المدارين . وكلها غابات استوائية متكاثفة مورقة دائما .

(٢) وعلى جانبي هذه الغابات ؛ بقاع حارة في جميع الأيام ؛ ولكنها ممطرة في الصيف فقط ، جافة في الشتاء . ومنها أقاليم السودان عامة ، وما يماثلها مما يسمى « سفنا » أو أقاليم الأعشاب الاستوائية .

(٣) ويمثلها أقاليم الرياح الموسمية من آسيا وأستراليا الشمالية ؛ غير أنها أشد منها رطوبة وجفافا ؛ كلهندستان ، والهند الصينية ، والصين الجنوبية .

(٤) وعلى الجانب القطبي للسفنا ؛ توجد البقاع الجافة : من أشباه الصحارى ، والصحارى . وكلها في حيز الرياح التجارية ، وفي داخل القارات — ناشئة عن المحيطات . ومن أمثلة الأول : الصحراء الكبرى في إفريقيا . ومن أمثلة الثاني : صحراء غوبي في بلاد الصين من آسيا . ويحدث من جفاف هوائها ، وندورة السحب في سمائها ؛ أن النهار فيها يكون على أشد ما يكون من الحر ، ويكون الليل فيها على أشد ما يكون من البرد . فإذا كانت في المناطق المعتدلة مثل غوبي : فإن الليل فيها يكون زمهيرا ، وهذه هي بقاع الزوابع الرملية الخطرة .

(٥) ووراء المدارين إلى الجهات القطبية ؛ تكون السواحل

الشرقية للقارات هي الأقاليم : ذات الصيف الحار الرطب ، والشتاء المعتدل الجاف ، كالصين الوسطى ، وأستراليا الشرقية .
(٦) ووراء الخط (٣٠°) من العروض الشمالية ، تكون السواحل الغربية للقارات ذوات أمطار زوبعية شتوية فقط ، وتكون جافة في بقية الفصول . وهذه هي التي تسمى أقاليم البحر المتوسط ، وصيفها حار ، وشتاؤها معتدل . ولها أمثلة في كل قارات الأرض ؛ كالزاوية الجنوبية الغربية من إفريقية وأستراليا ، وسواحل شيلي الشمالية من أمريكا الجنوبية ، وسواحل كلفورنيا من الولايات المتحدة الأمريكية .

(٧) ويلها شمالا أقاليم الرياح الغربية من أوروبا الغربية ، وما يماثلها من البقاع المعرضة لرياح العكسية . وهي ممطرة في جميع الفصول ؛ صيفها معتدل ميل إلى البرودة ، وشتاؤها معتدل نوعا ما . ومن أمثلتها في غير أوروبا ؛ كالمبيا البريطانية ، وطمانيّة .

(٨) وفي داخل القارات الشمالية شرقي الأقاليم السابقة ؛ توجد البقاع ذات المناخ القارى ، الذى يكون الفرق فيه عظيما بين أعلى ما تصل إليه درجة الحرارة وأدنى ما تهبط إليه ؛ أى أن الصيف يكون حارا ، والشتاء يكون باردا . وأمطارها الصيفية تكون رذاذا ، والشتوية تكون ثلجا وصقيعا . ومن أمثلتها : كندا الوسطى ، وسيبيريا .

(٩) والسواحل الشرقية من هذه الأقاليم القارية ؛ يكون قربها إلى البحر سببا في غزارة أمطارها . وأكثرها يكون زوبعيا ؛ ولكن

رياحها القارية المتقلة من اليابس إلى الماء . تصير الشتاء باردا جدا ، كما في منشوريا ، وكندا الشرقية .

(١٠) ووراء هذه المناطق : الأقاليم الباردة التي تسمى بقاع الشمس في نصف الليل ، ولا تدفؤ في أى فصل ، وشتاؤها في غاية الشدة .

(١١) والجبال العالية تظهر عليها هذه الأنواع المختلفة من المناخ ؛ لأن درجة الحرارة تنخفض بالارتفاع . فاذا كانت في الأقاليم الاستوائية وضح على وجهها : تعاقب المناخ الحار الرطب ، والدفء الرطب ، والمعتدل ، والقطبي الشامي . والأودية المحمية بالجبال قد تكون جافة ؛ إذا كانت في جوار الوجه الثاني من الجبل المعرض أحد وجهيه إلى الرياح الرطبة ، كما في أودية التبت مثلا خلف جبال همالايا الممطر وجهها الجنوبي فقط .

وينبغي التنبيه إلى أن الجو يتغير بالتدرج : من إقليم إلى إقليم آخر ؛ لا أنه يتغير دفعة واحدة . وعليه فالأقاليم التي في طرفي الاقليمين المتجاورين ؛ قد يجتمع فيها خواص كل من الاقليمين ، أو يكون مناخها وسطا بينهما .

آثار المناخ في أحوال الناس

لكل نوع من المناخ أثره في أحوال الناس . وكما قسم القدماء وجه الأرض إلى الأقاليم السبعة : التي عينوا لكل واحد منها درجة حرارته ، وأحوال هوائه - جاء المتأخرون فقسموا وجه الأرض إلى المناطق

الخمس المعروفة : التي يحدها أو يفصل بينها المداران ، والدائرتان القطبيتان . وذلك باعتبار ميل أشعة الشمس ، وما يتبع هذا من الاختلاف في درجة الحرارة .

فالمنطقة الحارة : التي درجة الحرارة فيها بين (80° ، 84° ف) غالباً ، وقد تصل فيها إلى (130°) نهارة ، وقد تهبط إلى (54°) ليلاً . وأمطارها غزيرة باستمرار ، وبخاصة في البقاع التي على خمس درجات نحو إلى خط الاستواء . وأكبر السكان فيها من الزنوج ، ويذهب طوائف من الشعوب البيضاء ، ولكن المناخ أثر فيهم على طول الأيام ، فجعلهم سمر الألوان ، سود الشعور ، وجعل عمل الكبد والجلد قويا فيهم كسائر الزنوج ، فكثرت بينهم الأمراض التي تنتاب الجلد . والجهاز الهضمي لديهم بطيء العمل ، والجهاز العصبي كثير التقلب بين التنبيه والحمول . ومن أمراضهم الملاريا ، والدوسنطاريا ، والحمى الصفراء . هذا ، وتوضح أثر الاقليم الحار في جسد الانسان أنه :

- (١) يزيد في حرارته .
- (٢) يضعف التنفس ، ويقلل إفرازات حمض الكربونيك .
- (٣) يضعف القوى الهاضمة ، ويقلل شهية الطعام — وبخاصة الحيوانى منه —
- (٤) يشتد به عمل الجلد : فيكثر العرق . وربما أحدث الطفح الجلدى (كحمى النيل بمصر) .
- (٥) تنحط به قوى المجموع العصبي ، فيضعف نشاط العقل

والجسد - وبخاصة إذا كان الهواء رطابا - لأن ذلك يضاعف العرق .

قال ابن خلدون في المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر :

« قد رأينا من خاق السودان على العموم : الخفة والطيش وكثرة

الطرب ؛ فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قطر . والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة : أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيوانية وتفشيها ، وطبيعة الحزن بالعكس وهي انقباضه وتكاثفه . . . ولما كان السودان ساكنين في الأقاليم الحارة ، واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم - كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ؛ فتكون أرواحهم بالقياس على أهل الأقاليم الرابع (المعتدل) أشد حرا ؛ فتكون أكثر تفشيًا ؛ فتكون أسرع فرحا وسرورا ، وأكثر انبساطا . ويحيى الطيش على أثر هذه » . وهو قول حسن .

والمنطقة المعتدلة : وهي التي تظهر فيها فصول السنة بوضوح .

وتعتبر أصلح الأقاليم لسكنى الإنسان . وهي وسط بين أقاليم الحر التي تجهد الكبد والجلد والجهاز الهضمي ، وتجمعها عرصة للأمراض القتالة ؛ وبين أقاليم البرد التي تجهد الرئتين والكلىتين ؛ فتعتورها الأمراض الوخيمة العاقبة . ولذلك كان سكانها وسطا في أجسادهم وألوانهم وأمزجتهم وأحوالهم عامة . وقد تصيبهم الملاريا أيام الربيع

وألوانهم وأمزجتهم وأحوالهم عامة . وقد تصيبتهم المalarيا أيام الربيع والصيف ، والسل الذي من أخص أسبابه الرطوبة وسرعة التغير في درجة الحرارة . فإذا كان الهواء جافا ذا حرارة معتدلة واختلاف قليل ، كان موافقا لمصابين بهذه العلة ، كبقاع الصعيد بمصر .

وهذه المنطقة هي التي عنها ابن خلدون بالأقاليم الثلاثة : الثالث ، والرابع ، والخامس ؛ إذ قال في وصفها وأثارها في أحوال الناس :
« وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة ؛ فهم أهل الاعتدال : في خلقهم ، وخلقهم ، وسيرهم ، وكافة الأحوال الطبيعية للاعتدال لديهم : من المعاش ، والمساكن ، والصنائع ، والعلوم والرياسات ، والملوك . فكانت فيهم النبوات والملوك والدول ، والشرائع والعلوم ، والبلدان والأمصاير والمباني ، والفراسة والصنائع الفائقة ، وسائر الأحوال المعتدلة » . وقال في موضع آخر :

« فلهذا كانت العلوم والصنائع ، والمباني ، والملابس ، والأقوات والفواكه ، بل والحيوان ، وجميع ما يكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة — مخصوصة بالاعتدال . وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا ، وأخلاقا وأديانا ؛ حتى النبوات فانما توجد في الأكثر فيها . ولم تقف على خبر بعثة في الأقاليم الشمالية (الباردة) ، والجنوبية (الحارة) ؛ وذلك أن الأنبياء والرسول إنما يختص بهم أكل النوع في خلقهم وأخلاقهم . . . وأهل هذه الأقاليم أكمل ؛ لوجود الاعتدال لهم ؛ فتجددهم على غاية من التوسط : في مساكنهم ، وملابسهم ،

وأقواتهم ، وصنائعهم ؛ يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة ، المنمقة بالصناعة ؛ ويتنافسون في استجداء الآلات والمواعين ؛ ويذهبون في ذلك إلى الغاية » . وهو كلام في غاية الجودة .

والمناطق الباردة : وأهلها أقوياء البنية ، أقوياء الهضم ، أقوياء العضل ؛ يعمرّون طويلا ، وقاما يصيبهم من الأمراض الخاصة بأقاليمهم إلا القمّر ؛ وهو نوع من العمى ، يصيبهم من كثرة ما يتعرضون إلى ألوان الطيف المنعكسة عن الثاج . وشدة البرد لديهم في الفصول عامة جعلتهم قباح الخلقة ، قصار القامة ، مع أن الوظائف الحيوية فيهم كعمل القلب ، والدورة الدموية ، والرئتين ، والتنفس ، وعمل الهضم والكليتين — كلها على غاية النشاط .

قال ابن خلدون في صفة هذه المناطق وآثارها في أحوال أهلها :

« ونظير هذين الاقليمين (الأول والثاني) مما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس . شمل سكانهما أيضا البياض ؛ من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ؛ إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين وما قرب منها ، ولا ترتفع إلى المسامطة ولا إلى ما قرب منها ؛ فيضعف الحر فيها ، ويشتد البرد عامة الفصول . فتبيض ألوان أهلها ، وتنهي إلى الزغورة . ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط ؛ من زرقة العيون ، وبرش الجلود ، وصهوبة الشعور » . وهو قول في نهاية الجودة والصواب . وفي كل هذا كفاية .

عمل الانسان فى بقاع الأرض المختلفة

عمل الانسان متوقف دائماً على البيئة التى تحيط به ؛ فهى التى تعين للانسان نوع عمله ، ولها الأثر الأقوى فى حياته . ويتجلى ذلك بوضوح فى جميع حالاته الطبيعية والاقتصادية؛ بل وفى مواهبه العقلية، وأطواره الخلقية .

والبيئة هى مجموع القوى الطبيعية المختلفة الكامنة له : فى جو السماء، وأديم الأرض وتضاريسها المختلفة: من جبال، وأنهار، وسهول ووديان ، وقفار ، وبحار .

والغلات تختلف باختلاف البيئات ؛ فالسهول، والوديان، وبقاع المزروعات المختلفة ، والمراعى — بقاع تربية الحيوان واستخدامه . والغابات بقاع الأخشاب . والبحور بقاع الممادى النافعة والنفيسة غالباً .

ومحسن بنا أن نبين أنواع عمل الانسان فى بقاع الأرض المختلفة

على النحو الآتى :

(١) فى الغابات الحارة : تنمو الغابات حيث تتوافر الشروط اللازمة لنمو أشجارها : وهى الحرارة الكافية ، والرطوبة الموزعة على طول أيام السنة . وفى هذه الغابات تجد شجر المطاط (الكاوتش) ، والنخيل الزيتى ، والأبنوس ؛ والمجنة ، والأشجار الطبية؛ مثل الكينا وإليها تأوى أنواع الحيوان المختلفة : من الفيلة ، والحمر الوحشية وغيرها .

إن هذه الغابات الحارة مهد الانسانية في طفولتها : ففيها نشأ الانسان الأول ، ووجد فيها حاجته من الغذاء ، فاقتات من ثمار أشجارها المختلفة ، واتخذ من جلود حيوانها غطاء عند الحاجة ، ومن فروع أشجارها المتلاصقة مأوى يأوى إليه .

والانسان في هذه الغابات في أحط مراتب الانسانية : لا يعرف الزراعة ، ولا يستعمل من الآلات غير السهام والقسي ، يستخدمها بهارة في صيد الفيلة من أجل العاج ، وأنواع الحيوان الوحشية الأخرى من أجل جلودها وعظامها ، ويعالج أيضا صيد السمك من الأنهار والغدران التي تتخلل الغابات . وعلى العموم فإن إنسان هذه الغابات خمول ، لا يعمل إلا قليلا ، لأنه لا يجد مشقة في سبيل الحصول على القوت ، وهو أقصى ما يسعى إليه ؛ ولأن الجو هناك لا يبعث على النشاط ، والطبيعة ثائرة عنيفة . هذا ، وإن حركاته في هذه الغابات مقيدة ؛ لأن طرقها ضيقة ، تغتورها الأغصان ، وتسدها الفروع التي تمتد بين جذوع الأشجار الضخمة .

وبجانب هذا الانسان الهمجي ، نجد أقواما أرقى من الوجهة الاجتماعية ؛ هاجروا إلى أطراف هذه الغابات ، وغالبوا الطبيعة نوعا ما ، فاجتثوا بعض الأشجار ، وكشفوا عن مساحات معينة : عالجوا فيها زراعة الأرز ، وقصب السكر ، والبن ، والكاكاو ، والتبغ ، والذرة ، والموز . ومن هؤلاء سكان غابات الأمزون من الهنود الحمر .

كذلك نجد أقواما آخرين يغدون من البقاع القريبة ، ويدخلون

الغابة يجمعون المطاط منها ويبيعونه للتجار . والمطاط أنواع : منها الصمغ المرن المعروف « بالكاوتشوك » الذى يستعمل فى صناعة إطارات العجلات ، ثم « الجتارتشا » ويختلف عن « الكاوتشوك » فى أنه يصير ليناً رخوا عند وضعه فى الماء الساخن ، أو تعريضه للهواء ؛ وبهذا يمكن صبه فى قوالب مختلفة .

ولهؤلاء الأقوام صناعات لا تخرج عن النسيج ، والفزل ، وعمل الخلف . ومن غريب أمرهم أن النساء عندهم هن القائمات بأمر الزراعة والصناعة ؛ أما الرجال فلا عمل لهم إلا الصيد وصنع الآلات الحربية ، وشن الغارات على القبائل المجاورة طمعا فى خربهم .

(٢) المروج : - والمروج بقاع العشب : سواء أظلم أكثر أيام السنة غصبا ، أم جف ؛ فهى إذن بقاع أنواع الحيوان الأهلية والوحشية : من آكلات الأعشاب ، أو من آكلات اللحوم .

وتكثر المروج فى السهوب التى تشمل : هضبة آسيا الوسطى الممتدة من منشوريا إلى منغوليا فالتركيستان ، ثم جنوب سيبيريا والروسيا حتى بلاد المجر ، كما تضم أيضا جزءا كبيرا من هضبة إيران وآسيا الصغرى وبلاد العرب .

ومنها أيضا أراضى الپيرى « Prairies » ، الواقعة غرب خط طول (١٠٠ °) غربا ، والممتدة حتى جبال روكى بأمريكا الشمالية .

ومن مناطق المروج إقليم السفانا « Savanna » ، الواقع بين المدارين : فى أمريكا الجنوبية ، وإفريقية ، وجنوب آسيا وأستراليا ؛

بين أقاليم الغابات الاستوائية المطيرة ، وإقليم الصحراء . وتشمل السفانا : « اللانوس » في فنزويلا ، و « الكمبوس » في البرازيل ، و « البمباس » في بتاجونيا بالأرجنتين ، وأراضي السودان ، ومراعي جنوب إفريقية ، وشمال استراليا فيما إلى الأقاليم الموسمي .

يشتغل سكان المروج بآسيا (المعروفة بالسهب) ، باستئناس الحيوان ، وتربية الضأن والماعز والماشية والجمال والحمير والخيول . وهم في غاية المهارة في ترويض الخيول وتذليلها ، والخيول عندهم مقياس للثروة . وعلى الحيوان يعتمدون في جميع أمور معيشتهم : فمنها يأكلون ويلبسون ، ويتخذون جلودها فرشاً وآنية ، ومن أشعارها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً ويوتأ يستخفونها .

وتعتبر الولايات المتحدة (بيراريا) الواسعة ؛ من أشهر الممالك التي تخصصت في تربية الماشية ؛ مسترشدن في هذا بطرائق علمية . ومن أعجب ما يري في « شيكاغو » وغيرها ؛ حظائر الهائلة التي تتخذها الشوارع ، وتقف عليها القطارات مباشرة ، ويباغ الوارد لها من مراعي الولايات المتحدة نحو اثني عشر مليون رأس : ما بين ماشية وماعز وضأن وخنزير . والولايات المتحدة أكثر الممالك تربية للاخنازير ، ويبلغ إنتاجها منها أكثر من ثلث إنتاج العالم كله . والرعاة هناك ليس فيهم عادات البدو المتأصلة في سكان سهوب آسيا .

الصناعات في إقليم المروج : برع سكان سهوب آسيا في صناعة

السجاد جيد والأبسطة الجميلة من الصوف والوبر الذي يمدهم به الحيوان

ويصدر أهل «الأرجنتين» الصوف إلى الممالك الصناعية لغزله ونسجه ،
وتصدر «أرغواي» اللحوم المحفوظة من (بصطرمة وسجق ... الخ) ،
وتدر عليها هذه الصناعات مالا كثيرا . واستراليا على حداثة عهد ها ،
تصدر من مروجها حاصلات حيوانية مختلفة : من أصواف ، وشحم
وجلود ، ولحوم مشاجة ، وزبد .

هنا ، وتصدير اللحوم أكثر شيوعا من تصدير الحيوانات
الحية ؛ لأن الأخير كثير النفقات في النقل ، وعرضة للهلاك . ويعنى
سكان إفريقيا الجنوبية بتربية النعام كما تربي الطيور ،
ويصدرونها .

الزراعة في إقليم المروج : إن أول الأسباب في تكوين مروج

العالم ومراعيه ؛ إنما هو كون المطر فصليا ، أو قلته غالبا بما لا يسمح
بقيام الزراعة . إلا أن الفكرة متجهة اليوم إلى تحويل جزء كبير من
هذه المناطق الجافة إلى منطقة زراعية ؛ بوسائل الري الصناعي . وقد
جربت هذه الوسائل في بعض سهوب آسيا (التركستان) ؛ فصادت
بعض النجاح ، ويزرع هناك الآن القمح والفواكه والقطن .

وفي أطراف السفانا المجاورة للغابات الاستوائية ؛ يشتغل الناس
هناك أيضا بزراعة القطن ، وقصب السكر ، والدخن ، والفواكه
الاستوائية .

وقد هاجر الأوربيون إلى اللانوس والبمباس بأمريكا الجنوبية
ومدوا فيها سككا حديدية ، وأجروا المياه العذبة إلى بقاعها المختلفة ،

ونجحوا في معالجة الزراعة نجاحاً يذكر .

(٣) في الصحارى الحارة : تقع هذه الصحارى على حدود

المنطقة المدارية . والرياح الغالبة فيها هي التجارية الجافة ؛ حيث يسود الضغط العالى الى المدارى . وتشمل : الصحراء الكبرى الافريقية ، وصحراء العرب ، وإيران ، وصحراء أمريكا الشمالية - فى نصف الكرة الشمالى . أما فى النصف الجنوبى : فصحراء كاهارى ، وصحراء استراليا . ومعظمها يقع فى المناطق التى تصل إليها الرياح بعد أن تكون قد سقطت أمطارها . وهى كلها بقاع قفرة لا نبات فيها ولا ماء .

عمل الانسان فى الصحراء : يعنى البدو بماشيئهم : يربونها على المراعى الضئيلة التى تنبت هنا وهناك ، ويعيشون على مواردهم الطبيعية : من ألبان ولحوم . والتمر والملح والصوف والوبر ؛ أهم متاجرهم : يستبدلونها فى أسواق يقيمونها على تخوم الصحراء عند اتصالها بالحضر ؛ كما هو الحال فى « تمبكتو » . وواحات الصحراء هى الجهات الخصبة منها : تروىها مياه العيون ، وسكانها مقيمون ، لا يرحلون غالباً ، يعنون بتربية الضأن والماعز والابل والبقر والخيول ، وزراعة بعض الحبوب والفواكه . إلا أن الطبيعة كثيراً ما تقسو عليهم ؛ فتغيض مياه الآبار ، وتتضاءل المراعى ؛ فتهلك الماشية ، ويتحول البدوى إلى لص وقاطع طريق : يغير على القوافل طلباً للقوت . وأهل الصحراء دائماً فى نزاع على موارد العيش ومنازل الكلاء ،

وترغمهم ظروف معيشتهم إلى الارتحال .

وبعض سكان الواحات الافريقية يشتغلون بعمل أوانى الفخار ، وبالحدادة ، وصناعة الجلود ، وعمل الطنafs (الكليم) . وبعضهم أدلاء : يرشدون القوافل إلى الطرق التى ينبغى أن تسلكها .

العناية بالواحات فى مصر : ولا بأس هنا أن نذكر شيئاً عن حالة الواحات الاقتصادية فى مصر ، ونخص بالذكر واحتى سيوة والبحرية . فقد بلغت مساحة ما زرع من الأراضى قمحاً وشعيراً وأرزاً فى هاتين الواحتين ، ألفى « فدان » ؛ منها خمسمائة وألف فى سيوة ، والباقى فى البحرية . والتجارب الزراعية التى تجريبها وزارة الزراعة أسفرت عن نجاح ؛ فيما يختص بادخال القمح الهندى ، وزراعة الكروم والتين والعنب . وقد بلغت فيها غلة الشعير فى هذا العام ، نحو ستة أراذب للفدان الواحد . ودلت التجارب على أنه يستطيع بوساطة الآلات الرافعة زرع الخضر والبقول ؛ بتدرج حاجة السكان الذين يتبعون الآن أحدث الطرق فى زراعة الشعير وغيره من المحاصيل .

وقد أنشأت وزارة الزراعة « منجلاً » فى البحرية لتربية ملكات النحل الايطالى ؛ والغرض من إنشائه تعليم بعض الأهلىين هناك صناعة تربية النحل ؛ ليكون لهم مورداً من موارد الكسب . وتتناول عناية الحكومة تسهيل طرق المواصلات إلى الواحات ؛

بإنشاء الطرق الحديدية ، وزيادة عدد القطارات التي تسير بينها وبين أقاليم القطر ؛ لأن الواصالات من أقوى العوامل : في تعمير تلك الجهات النائية ، ومساعدتها على نقل محاصيلها وتصريفها في الأسواق القريبة منها . يضاف إلى ذلك ما يبذل من الجهود في سبيل تحسين الشئون الصحية -- ولا سيما تطهير ماء الآبار التي يستقى الأهليون منها -- وغير ذلك من التدابير الواقية لصحتهم من الأمراض .

تثمين الصحراء : يتفائل كثير من الاقتصاديين الآن بأن معالم الصحراء سوف تتغير على مدى الزمن ؛ بواسطة ما يسمى بالزراعة الجافة « Dryfarming » . وقد جرب هذا في صحراء الولايات المتحدة بنجاح ؛ فحفظت التربة رطوبة كافية لمحصول الذرة ، من غير أن تسقط على الأرض قطرة من الماء ؛ من وقت البذر إلى وقت الحصاد . وتحول بذلك أيضا جزء كبير من صحراء كاهاري ولوييا إلى أرض زراعية ؛ بواسطة الري من الباطن (أى الآبار الارتوازية) . وقد حول الفرنسيون جهات واسعة من صحاري تونس والجزائر ، التي تقع جنوبي جبال أطلس مباشرة ؛ إلى مزارع ، بعد أن كانت صحراء قاحلة .

ولا شك في أن ازدياد العلوم وترقيتها ، واستنباط الطرائق العلمية في الري ، وتزايد السكان ، والحاجة إلى استعمار سطح الأرض — كل هذا كفيل بقلب كيـان الصحراء القديمة التي لا زالت تشمل جزءا كبيرا من سطح الأرض .

(٤) الصحراء الجليدية : تكثر هذه الصحارى فى شمال سيبيريا وشمال أمريكا : فى كندا وجهات القطب . وبردها شديد ، وأمطارها الثلجية قليلة . وتعرف الصحراء الجليدية فى روسيا باسم « التندورا » .
عمل السكان : سكان التندورا كسكان الصحارى الحارة ؛ دائبون على الارتحال ؛ لقسوة الطبيعة عليهم : فى الصيف لا عمل لهم إلا الصيد من البر والبحر ، يدخرون منه ما يقتنئون به أيام الشتاء . ويشغلون برعاية غزال الرنة الذى استأنسوه ، وعلى هذا الحيوان معتمدتهم ؛ فن لبنه ولحمه يتخذون غذاءهم ، ومن عظامه وقرونه عددا وآلات للصيد ، ومن أوتاره حبالا ، ومن جلوده غطاء ولباسا ، وهو الذى يحمل خيامهم ، ويجر مزاجلهم على الجليد إذا ما ارتحلوا فى الشتاء إلى الجنوب وأقاموا على حواشى الغابات الباردة .

فى تلك الغابات يصطاد القوم الحيوانات ذوات الفراء وذوات الدهن : من الثعالب الأسود والأبيض والفضى ، والدب ، والفهد ، والسنجاب ، وعجل البحر ، وغيرها من أنواع الحيوان الدهنية . وهؤلاء القوم غاية فى السذاجة ؛ إذ يستبدلون بالزائد عن حاجتهم من الفراء الثمين ، القليل من الشاى والسكر والخمور مع تجار يتصلون بهم ؛ وهؤلاء يحملون ذاك الفراء إلى أسواق : لندن ، ونيويورك ، ولييزج ، ونجنى نفجورود ؛ حيث يصيبون أرباحا طائلة .

والعمل فى التندورا موزع بين الرجال والنساء ؛ فعمل الرجال أن يحصلوا على الطعام بصيد السمك والحيوان ، ويصنعوا آلات

الصيد ويصايدوها . أما النساء فيعمل النساء في العالم كله ، لأعداد ما يأتي به الرجال : ففي الصيف ينظفن السمك ، ويحفظن ما يبقى منه لأخزانه ، ثم يصرفن ما بقي من وقتهن في مساعدة صغارهن على جمع الثمار القابلة التي تنمو هناك ، وفي مراقبة قطعان الرنة حتي لا تبعد عن منازل القوم . ومن أعمالهن المهمة أيضا : دق الخيام وطبها . أما في الشتاء عندما يشتغل الرجال بالصيد في أطراف الغابات : فتبقى النساء في الخيام مع أطفالهن ، يرعين الرنة ، ويهيئن الفراء ، ويصنعن منها ملابس وأغطية وخياما .

(٥) في غابات المنطقة المعتدلة والباردة : تسكن هذه الغابات في شرق الولايات المتحدة وبلاد السويد ، إذ تشغل مساحة قدرها (٥٢ ٪) من مجموع مساحة الأخيرة . وفي روسيا ، وكندا : مقاطعة « كليميا » البريطانية على جوانب الجبال الصخرية ، وكذا في « نيوفونلاند » في وديان الأنهار وعلى شواطئ البحيرات والبرك .

إن هذه الغابات غنية بأشجار السرو الذي ينتفع به في سواري المراكب ، ثم الصنوبر الذي يستعمل للأثاث ، والدردار والبسوط والزان والجوز ، وغيرها من الأشجار التي تمتاز عن أشجار الغابات الاستوائية بمقاومتها واندماجها وخلوها من الرطوبة .

عمل الإنسان فيها : يعمل الإنسان في هذه الغابات على استئصال الأشجار ، بالنظر إلى سعة استعمال أخشابها في صنوف الأدوات المختلفة . على أنهم يشتغلون فيها أيضا : بجمع القار ، والقطران النباتي ،

والراتنج ، والتر بنتينا ، ولباب الخشب الذى يستعمل فى صناعة الورق .
وفى كندا يدخل المستعمرون والهنود الغابات فى الشتاء ، ويقطعون
الأشجار ثم يجرونها على الثلج إلى رؤوس الأنهار ؛ حتى إذا حل
الصيف وذابت الثلوج ، حملت المياه تلك الجذوع إلى قرب المصاب ؛
فيتلقاها أصحاب المصانع ، ويعرضونها على المنشبر الميكانيكية التي
تعدّها فى الأشكال اللازمة للتصدير .

إبادة الغابات : والناس فى هذه الغابات عمال إتلاف . ومنهم من
يشعل النار فى الأميال منها ؛ لتخلو لهم مساحات يزرعونها ، أو
يجعلونها مراعى . ولما تغالى الناس فى إبادتها تبين لهم وجه الضرر ؛
إذ تعرت الأراضى ، وأصبحت السيول الجارفة لا تجد أمامها عقبة
ولا صدا ؛ فنحوت الوديان إلى مستنقعات ، وهب الناس يطالبون
بدفع هذا الضرر عنهم . واضطرت الحكومة إلى سن اللوائح
والقوانين لحماية الغابات ، والتشجيع على غرسها فى أماكنها القديمة
كما تيسر ذلك . وكان « الجمعية النادى الفرنسى الرحال » بفرنسا ،
وجامعة برمنجهام بالإنجلترا - مجهود كبير فى إنشاء غابات على
فوهات المناجم ؛ لتلطّف الجو ، وتمحّب الدخان .

(٦) بقاع البحر الأبيض المتوسط :-

عمل الانسان فيها : أول عمل يقوم به سكان هذه المنطقة ؛
الزراعة . فتجود فى أراضيها : الحبوب ، والفاكهة : كالكرم ، والزيتون
والتين ، والرمان ، والخوخ ، والمشمش ؛ والمواالح : كالليمون ، والبرتقال .

والانسان فى هذه المنطقة عامل نشيط ، يتخذ أرقى الطرق الزراعية ،
ويستخدم أحسن الآلات فى الري بسبب قلة الأمطار .

وهناك صناعات تترتب على الزراعة يقوم بها الأهليون : مثل عصر
الزيت والخمر ، وتربية الماشية ، وصناعة تجفيف الفواكه والحبوب ،
وعمل الجبن (الرومى) ، وتجفيف السمك وتمايجه ، وصيد الاسفنج
والمرجان ، وصناعة الحرير والصابون . والواقع أن جفاف هذه المنطقة
فى أكثر أيام السنة هو الذى ألهم سكانها صناعة التجفيف .

(٧) بقاع الزراعة : يختلف عمل الناس فيها باختلاف المناطق :

ففى المنطقة الحارة يكون العمل قليلا ؛ لوفرة الحرارة والرطوبة ،
والضوء ، والسماد الطبيعى من تحليل أديم الأرض والنباتات . على
أن الطبيعية جادت هناك بالغلات الوفيرة التى ينتفع بها الانسان من
غير كد ولا تعب ؛ كما سبق شرحه .

أما فى المعتدلتين فان ممارسة الزراعة تفضى بالانسان إلى
نتائج ، منها :

أولا - استنباط أنجع الوسائل وأسهلها للحرث والري ؛ فتراه
يجرى المياه إلى مواضع الخصب بشق الجداول والقنوات ، وينشئ
نظاما للصرف .

ثانيا - يوالى تسميد الأرض ، ويفتح فيها الطرق ، ويستعمل
الوسائل الحديثة العامة الموروثة ، والتجارب ؛ كل ذلك لتدر عاياه الأرض
من خيراتها ما يقوم بمطالبه فى الحياة .

ثالثا - في الأقاليم التي يكون مطرها دوريا ، يسعى الانسان إلى ادخار الماء في أزمائه لينتفع به أيام الجفاف ؛ فيقيم السدود والخزانات لهذا الغرض .

رابعا - إن الفترة التي يقضيها المزارعون بين البذر والحصاد ؛ تتيح لهم فرصة الاشتغال ببعض الأعمال الفنية ؛ كالنقش والموسيقى والحفر والتصوير ؛ ولذا فإن رجال الفن في العالم القديم خرجوا من بيئات زراعية .

خامسا - البيئة الزراعية تتطلب وجود صناعات مختلفة الحرف ؛ كالحداين الذين يقومون بصنع العدد والآلات الزراعية وإصلاحها ، والبنائين والنجارين لتشييد المنازل والدور ، وصناع الأثاث والرياش لتأثيث تلك الدور .

فلا عجب إذن أن نشأت المدن القديمة ؛ كمدنية مصر ، وبابل وأشور ، والهند ، والصين - في بيئات زراعية بحتة ، ولم تلبث هذه المدنية الساذجة أن تدرجت وتعمدت حتى أصبح مقرها بقاع المعادن والصناعات .

(٨) بقاع المعادن والصناعات : توجد المعادن عادة بين ثنايا الصخور القديمة جدا ، المتعمقة في باطن الأرض . فإذا حدث أن تقلصت القشرة الأرضية ؛ ظهرت الصخور على سطح الأرض ، وسرعان ما تتناولها عوامل التعرية المختلفة ؛ كالريح والمطر وغيرها ؛ فتظهر . وقد كان ذلك شأن النحاس في شيلي وأسبانيا ، والذهب في

استراليا وزياندة : والحديد في الترويج . وأكثر ما عثر عليه من المعادن كان في الجبال والتلال ، وتقل في السلسلة الرئيسية ، وتكثر عادة عند تلاقى السهل بالجبل ؛ كما هو الحال في روسيا ومناجم أواسط أوروبا .

يعمل الانسان في هذه البقاع لاستخراج المعادن : فإن كانت قريبة من سطح الأرض ؛ فلا تحتاج إلى أعمال كثيرة ، ولا إلى إنفاق أموال طائلة على شراء الآلات ونصبها ؛ وإن كانت بعيدة عن وجه الأرض ؛ كان العمل فيها متنوعا ؛ لافتقارها حينئذ : إلى رءوس الأموال ، والآلات ، والمهندسين ، والجيولوجيين ، والعمال الكثيرين ؛ وهذا غالبا يستدعى تكوين جماعات تقوم بهذا العمل الخطير . وإذا كانت المعادن المستخرجة وقودا كالفحم والبتروول أو نحوهما ، قامت الصناعات - وبخاصة إذا كان مع الوقود المعادن النافعة ؛ كالحديد - وحينئذ يتكاثر السكان ، وتتنوع الصلوات ، وتنشأ المدن ، ويظهر التنافس الذى قديؤدى إلى الضغائن والأحقاد وظهور روح الاشتراكية والتمرد .

هذا ، وإن قيام الصناعات فى بقاع المعادن قد جر إلى التسابق فى استعمار البلدان المختلفة ؛ لضمان المواد الأولية ، ولإيجاد أسواق لتصريف المصنوعات . والبيئة الصناعية هى مهد الاستنباط ، ومجال الاختراع ، وهى عنوان المدنية الحديثة .

(٩) فى بقاع الصيد البحرى ونحوها : ليس المصائد المياه

العذبة من الأهمية ما لمصائد الماء المالح ؛ إذ أن قيمة أسماك الماء العذب قاصرة على الممالك التي يقل فيها السمك البحري ؛ كما في روسيا ، وألمانيا ، وبعض جهات فرنسا ، والبلدان الواقعة على ضفاف أنهار اسكتلندة .

أما أشهر بقاع الصيد البحري فهي :

(١) (جراندينك) ، وهو شط يقع في ملتقى التيارين : لبرادور وحلف ستريم (تيار الخليج) . والنبات المتحطم يرد إليه السمك الصغير ، وهو طعام للسمك الكبير (٢) شط الدوجر في بحر الشمال .

(٣) جزر النرويج .

(٤) سواحل أمريكا الشمالية على المحيط الهادى . (٥) اليابان

(٦) البحر الأبيض المتوسط .

عمل الانسان في تلك البقاع : — إن أهالى السواحل : فى إنجلترا

وهولندة ، والنرويج ، والممالك المتحدة ، وكندا — يتخذون صيد السمك حرفة يستغنون بها عن مزاولة الحرف الأخرى . ففي كندا وحدها يحترف باصطياد السمك أكثر من ألف ألف شخص . وقد بالغ بعض الصيادين فى اصطياد نوع من حيوان البحر هناك ، اسمه « الهايشة » ؛ حتى كاد البحر يجذب من هذا الحيوان الرائع النافع ، وغلا ثمن عظمه ؛ حتى بلغ ثمن الهايشة الواحدة من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جنيه . واضطرت الحكومة إلى أن تحرم اصطياد هذا النوع سنوات حتى يتكاثر .

ويتبع حرفة الصيد صناعات أخرى متعلقة بها : منها صناعة الشباك والحبال من الألياف النباتية : « والسنارات » : من العظام ، أو من صدف السلحفاة ، وأنواع الحيوان البحرية الأخرى ، أو من الخشب الصلب ، أو المعادن .

ومنها صناعة القوارب . وتصنع أحيانا من جذوع الشجر المنقورة المجوفة ، أو من لحاء الأشجار ، أو من أنياب القيطس المغطاة بالجلد . وبعد ما أدراك أن الملاحين الذين طافوا حول الأرض ، وكشفوا الطرق البحرية - ارتقوا من جماعات الصيادين قديما ، وما زال أهل الترويج معروفين باقتحام البحار ، وما فتئوا يقومون بصناعة السفن لغيرهم من أمم الأرض ، ولا زال أفراد منهم يعملون في السفن المترددة في بحار الدنيا ربانين وسفانين : يرتادون البلاد ، ويقومون بخدمات جليلة للناس .

هذا ، وبجانب مصائد الأسماك يزاول الناس عادة حرفة تمليح السمك وتجفيفه ، وتصريفه إلى البلاد التي تطلبه في المواسم الدينية الكاثوليكية ، كما يعملون الأمشاط و « الباعة » الشفافة من غطاء السلحفاة البحرية وفك القيطس ، ويصنعون السماد « التروجين » من الفضلات العضوية للأسماك ، أو من الأسماك التي فسدت فلم تعد صالحة لاستهلاك بني آدم .

(١٠) بقاع القوى الطبيعية : قد تفتن شعوب إلى استخدام القوى الطبيعية ، كالرياح ، ومساقط المياه ، وغيرها - في إدارة الآلات

بدل البخار ؛ فينشئون دور الصناعة المتنوعة ، ويقومون بحرف شتى .
فتوة الريح في هولندية قد استخدمها الأهالى فى إدارة طواحين الماء
والحبوب ؛ وذلك بسبب انخفاض الأراضى مع سهولتها ، وتعرضها
لرياح بحر الشمال . وعرف أهل سويسرا وإيطاليا وبلجيكا من قديم ؛
استخدام المياه المنحدرة على جوانب جبالهم ؛ فصنعوا الصوف ،
ومهروا فى نسجه وصنعه فى القرون الوسطى . واشتهرت يوركشير
بنفس الصناعة ؛ إذ أن على جبال أبنين يمكن تربية الأغنام ذوات
الأصواف الجيدة ؛ ومن الجبال نفسها تستمد القوة المائية . وكذا فى
شيفلد الشهيرة بأساعتها ؛ فإن قوة الماء فيها كفيلة بإدارة أرحاء الشحذ
على مدى الدهر .

ويطلق عادة اسم « الفحم الأبيض » على القوة الناشئة من
اندفاع المياه والتلاجات ؛ بينما يطلق اسم « الفحم الأخضر » على القوة
التي تولدها مساقط المياه .

وقد استطاع الانسان أن يستخدم القوة الميكانيكية للمياه فى
توليد الكهرباء ، وسخرها فى الصناعات التى تسمى « Hydre Elechre » ،
ويتم هذا غالبا فى مساقط المياه المرتفعة . فاستخدمت مدينة « ميناباس »
القريبة من منابع الميسيبى هذه القوة فى طحن الدقيق ، واستخدامها
النرويج والسويد فى صناعة الورق وعجينته وفى صناعة الحديد ،
واستخدمت فرنسا قوة المياه المنحدرة على جبالها الشرقية ، وهى القوة
التي مونت الجيوش الفرنسية فى الحرب العالمية ، وأمدتها بالمعدات

الحرية. أما سويسرة وإيطاليا فقد استفادت من هذه القوة في تسيير قطارات السكك الحديدية ونحوها. وتعتبر شلالات نياجرا أكبر مظاهر القوى المائية بأمريكا الشمالية، وقد استخدمتها كندا والولايات المتحدة في إدارة المعامل المختلفة في « بفلو » و « ترنتو » و « منتريال ». والحرارة الشديدة الناتجة من الكهرباء تستخدم في صناعة « الألومنيوم » ، وسحق الخشب ، واستخلاص « الأكسجين » من بعض المركبات ، وتحليل المركبات المختلفة إلى عناصرها. وما زالت قوة انحدار المياه من عيون خزان أسوان في إبان الفيضان وبعدد موضع نظر الحكومة المصرية .

ونختتم هذا الفصل بأن نلخص لك ما جاء في تقرير لجنة التجارة والصناعة في هذا الشأن :

إن طريقة الانتفاع بالقوة الكهربية ، هي في الأصل من أبسط الأمور ، فإنها لا تقتضى غير توجيه الماء المنبعث من أحد الينابيع إلى بعض المساقط المرتفعة ، ثم الانتفاع بقوة انحدار الماء من هذا المسقط في إدارة آلة مائية . وإذا كانت الآلة المائية « الطوربين » تتسلط على « دينامو » ، تحولت القوة المائية إلى قوة كهربائية يمكن نقلها خلال أبعاد شاسعة إلى أماكن استخدامها . وفي الحالة التي يكون فيها مقدار الماء عظيما ، وارتفاع المسقط يسيرا - تبلغ فترات الانتاج مبالغاً فادحا ، إذ لا بد حينئذ من تركيب معدات عظيمة لحصر كميات الماء ، وغير ذلك من الآلات . وإن خزان أسوان هو من هذا النوع ، ومستوى الماء

المحبوس فيه زمن التحاريق ينخفض، فتتقص معه القوى الكهر بائية المولدة . ولهذا يمكن القول بأن اليوم الذى تغذى فيه مصانع القاهرة بتيار كهر بائى وارد من أسوان ؛ لا يزال بعيدا . على أنه يمكن بلا ريب الانتفاع فى خلال جزء من السنة بقوة الماء المنحدر من الخزان عندما يباغ أعلى منسوبه ؛ وذلك لمباشرة بعض الصناعات الزراعية فى الجهات القريبة من أسوان . وهناك وجه من وجود الانتفاع بالكهرباء فى الأعمال الزراعية من الميسور تحقيقه ، وهو الاستغناء عن الآلات الرافعة التى تدير « المضخات » فى الوجه البحرى ، والاستعاضة عنها بإنشاء محطات كهر بائية فى مواضع مناسبة ، وتعميمها فى مصر — لا قصرها على بعض الأملاك التابعة لمصلحة الأملاك الأميرية — ويحسن جدا إنشاء أمثال هذه المحطات المركزية فى بعض المراكز الصناعية أيضا ؛ كدمياط ، والمحلة الكبرى . . . الخ .

ومما لا شك فيه أن كثيرا من مرافقنا الحيوية معطل أو ناقص ؛ بسبب عدم الانتفاع بالقوة الكهر بائية ؛ فلتتصور إذن ما كان يصير إليه وادى النيل لو أوتى سـ — كانه أذهان الأوربيين أو الأمريكان التى هى مخالفة كل المخالفة لأذهان المصريين . إذا ما كننا نشاهد شيئا من الحركات البخارية ، ولا « السواقى » ولا « الشواديف » ، وكافة هذه الأدوات العتيقة ، والآلات القديمة ؛ بل كان يقوم محلها « المحرك الكهر بائى » ، تلك الآلة الصامتة السلسة القياد ، الطبيعية العنان ، الخفيفة الحمل ، السهلة الانتقال . وكما أن الدم

في الكائنات الحية ينبعث من القلب ، وينتشر في جميع أنحاء الجسم بواسطة شبكة من العروق والشرايين - كذلك كنما نرى القوة الكهر بائية تنتشر في كافة أرجاء الوجه البحري بواسطة شبكة من الموصلات متشعبة الفروع يكون مصدرها من مستودع كهربائي عظيم يوضع في قاب القطر .

على أن حركة استهلاك الكهر بائية في كل من القاهرة والاسكندرية تبلغ من العظم والاتساع مبلغا يسوغ إنشاء خطتين لاخط واحدة : إحداهما في الاسكندرية ، والاخرى في القاهرة ؛ لتوزيع القوة على جميع أنحاء الدلتا ؛ بل كذلك على البلاد الواقعة في وادي النيل والقاهرة ، إلى مسافة مئة كيلومتر على الأقل . ولو أعطينا أذهان الأمريكان ؛ لكانت كل الأعمال التي تقتضيها شحن المراكب وتفريغها تجري بوسائل آلية وكهر بائية ، ولكانت الحاصلات تنقل رأسا من الأرصفة والمصانع إلى المراكب ، والعكس بالعكس : بواسطة سكك حديدية ؛ بل بواسطة طرق هوائية من غير تكبد المشاق العظيمة في النقل بسائر الوسائط الأخرى ؛ ولأمكننا أيضا توليد القوة الكهر بائية اللازمة لمعامل الحلاجة ، ومطاحن الدقيق ، وآلات المحركات الصناعية الصغيرة التي تدير « الورش » .

ولو كنا في أمريكا ؛ لكانت أراضي القبارى في الاسكندرية ، التي تتصل بالميناء ، والتي هي نهاية الخط الحديدي الواصل بين السودان في الوقت الحاضر ، وإفريقية كلها حتي مستعمرة المكاب

فى المستقبل ؛ وبين البحر الأبيض المتوسط - نقول إذاً لاً أصبحت
هذه الأراضى مغطاه بالأرصفة المنظمة ، حافلة بالمصانع الضخمة :
من زراعية وكمائية .

ونحن من جهتنا نقول : إن استخدام عيون الخزان ، وقوة
مياهاها فى إدارة ربحى الصناعة بمصر ، وإعداد السماد اللازم للتربة
المصرية - مفيد ، وإن نجاح المشروع أكيد .

والله الهادى إلى سواء السبيل

تم



بعض مصادر هذا الكتاب

أولاً — المراجع الانجليزية : —

- (1) A History of the Ancient Egyptian : Breasted.
- (2) The Dawn of Civilisation : Maspero.
- (3) Legacy of Islam.
- (4) Encyclopædia Britannica.
- (5) Encyclopaedia Islamica.
- (6) Men of Science and their Discoveries.
- (7) The New Basis of Geography : Redway.
- (8) History of Commerce : Gibbins.
- (9) The Highways of the world : Mekieeam.
- (10) Climatic Control. : Bonacina.

ثانياً — المراجع العربية :

- (١) الحضارة القديمة : لأحمد بك كمال .
- (٢) أخبار الحكماء : لابن القفطى .
- (٣) بسائط علم الفلك :
- (٤) الرواد : الجزء الثانى من كتاب أعلام المقتطف
- (٥) علم الفلك وتاريخه عند العرب : لاسنيور نلينو .
- (٦) التمدن الاسلامى : لجورجى زيدان .
- (٧) محاضرات الأستاذ سليم شحاته بالمجمع العلمى الشرقى ببيروت
- (٨) الدرر التوفيقية فى تعريف علم الفلك : لاسماعيل بك مصطفى الفلكى .



فهرس الكتاب

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٥	مقدمة	٣٢	اختراع المزولة
٩	رأى المصريين الأقدمين في الكون	٣٣	طريقة استعمال المزولة
١٢	نظريات خلق العالم	٣٤	فيثاغورس وآراءه في الأرض
١٣	نظرية كهنة عين شمس	٣٦	انكساجورس وآراءه في كروية الأرض
١٤	معارفهم عن الكواكب والنجوم والبروج	٣٦	هيرودوت
١٦	السنة وتقسيمها عند المصريين	٣٩	رأى هيرودوت في حدود الأرض
١٧	الدنيا في نظر البابليين	٤٠	أرسطو ورأيه في كروية الأرض وحدودها
٢٠	معارفهم الفلكية الأولى	٤١	أثرفتوح الاسكندر الأكبر في تطور الآراء القديمة
٢٢	انتقال الحضارة المصرية إلى اليونان	٤٣	ارسترخس اليوناني وأبعاد الشمس والكواكب
٢٤	جغرافية هومر	٤٤	هبرخس وجرم الشمس
٢٦	حدود الأرض في نظر هومر	٤٤	وقطر الأرض
٢٩	تطور العقلية اليونانية بعد هومر	٤٤	إيراستستين وقياس محيط الأرض
٣٠	طاليس ورأيه في الأرض	٣١	انكسمندر

الموضوع	ص	الموضوع	ص
أثر منظار غاليليو في معرفة	٧٢	استرابون الجغرافى	٤٦
كاف الشمس		بطليموس الجغرافى	٤٧
السبكترسكوب	٧٣	مبتكرات بطليموس العالمية	٤٨
السبكتروهيلاوGRAف	٧٥	بعض أخطاء بطليموس	٥٠
البندول (الخطار)	٧٥	بيد الجغرافى	٥٢
آلة السدس	٧٦	أثر الاستكشافات فى توسيع	٥٤
المسامون وأثرهم فى تقدم	٧٧	المعارف الجغرافية	
علم الجغرافيا		الرومان وعلم الجغرافيا	٥٤
أسباب نهضة المسامين بعلم	٧٩	الفتح الاسلامى وأثره فى	٥٧
الجغرافيا		توسيع رقعة الأرض	
معرفة عرب الجاهلية بالسماء	٨٤	حوادث تاريخية أخرى	٥٨
منازل القمر عند العرب	٨٥	وسعت نطاق علم الجغرافيا	
الأنواء عند العرب	٨٥	الاستكشافات العالمية	٦١
معرفةهم بروج الشمس	٨٦	علم الهيئة القديم والحديث	٦٢
علم الفلك فى القرن الاول	٨٧	نيقولا كوبرنيكوس	٦٥
وأوائل القرن الثانى للهجرة		جوهان كبلر الألمانى	٦٧
أثر الفرس والهنود فى	٨٨	قوانين كبلر فى الفلك	٦٩
النهوض بعلم الفلك		إسحق نيوتن وقانون الجاذبية	٦٩
فى الدولة العباسية		غاليليو ومنظاره	٧١

الموضوع	ص	الموضوع	ص
الشريف الأدريسى	١٢٢	الخدمات التي أسديت لعلم	٩٠
قيمة كتابه في عالم الجغرافيا	١٢٥	الفلك في عهد أبي جعفر	
ما جاء في كتابه عن مصر	١٢٧	كتاب السدهانت	٩٢
ابن بطوطة	١٣١	المجسطى في عهد هارون	٩٤
رحلاته	١٣٢	الرشيد	
رحلته إلى الهند	١٣٦	الخليفة المأمون وخدماته لعلم	٩٤
نقد رحلته	١٣٩	الجغرافيا	
عناية الافرنج برحلة ابن	١٤٠	عود إلى المجسطى	٩٥
بطوطة		الرصد المأموني	٩٧
ماركو بولو	١٤١	الصورة المأمونية	٩٨
خروج ماركو بولو	١٤٤	تحقيق طول محيط الأرض	٩٩
قصة ماركو بولو	١٤٥	والدرجة الأرضية في عصر	
رجوع آل بولو إلى وطنهم	١٤٧	المأمون	
أسر ماركو بولو وسجنه	١٤٩	علماء الجغرافيا عند العرب	١٠٣
التجارة في العصور الوسطى	١٥١	ورجال الرحلات عندهم	
الفينيقيون	١٥١	أبو معشر الباعثي	١٠٤
التجارة الفينيقية	١٥٢	ابن خرداذبه	١٠٧
مستعمراتهم	١٥٣	البيروني	١١٠
الطرق الرومانية	١٥٦	المسعودي	١١٥

الموضوع	س	الموضوع	س
في أثناء الحروب الصليبية		الغرض من إنشائها	١٥٨
وبمدها		أهم الطرق الرومانية	١٥٩
العلاقة التجارية بين مصر	١٨٥	قيود التجارة في العصور	١٦١
وإنجلترا في القرون الوسطى		الوسطى	
علاقة مصر التجارية مع غير	١٨٦	الاتحاد الهنسي	١٦٣
الأوروبيين في ذلك الوقت		نفوذ العصابة في الخارج	١٦٤
أقول نجم التجارة في مصر	١٨٧	اضمحلال العصابة	١٦٧
أنواع المناخ	١٩١	طرق الشرق	١٦٨
آثار المناخ في أحوال الناس	١٩٤	توزيع التجارة في أوروبا	١٧١
المنطقة الحارة	١٩٥	الطريق من البندقية إلى	١٧٢
المنطقة المعتدلة	١٩٦	الرين	
المنطقة الباردة	١٩٨	طريق الدانوب	١٧٣
عمل الإنسان في بقاع	١٩٩	طريق الرين	١٧٤
الأرض المختلفة :		تاريخ التجارة في مصر	١٧٥
(١) في الغابات الحارة .	١٩٩	إلى نهاية العصور الوسطى	
(٢) في المروج .	٢٠١	نظرة تاريخية	١٧٦
(٣) في الصحارى الحارة .	٢٠٤	علاقة مصر التجارية بأوروبا	١٨١
العناية بالواحات في مصر	٢٠٥	قبل الحروب الصليبية	
تشجير الصحراء	٢٠٦	علاقتها التجارية بأوروبا	١٨٤

الموضوع	ص	الموضوع	ص
والصناعات		(٤) فى الصحراء الجليدية	٢٠٧
(٩) فى بقاع الصيد البحرى ونحوها	٢١٢	(٥) فى غابات المنطقة المعتدلة والباردة	٢٠٨
(١٠) فى بقاع القوى الطبيعية	٢١٤	إبادة الغابات	٢٠٩
ملخص تقرير لجنة التجارة والصناعة فى مشروع استخدام	٢١٦	(٦) فى بقاع البحر الأبيض المتوسط	٢٠٩
قوة انحدار المياه من عيون خزان أسوان .		(٧) فى بقاع الزراعة	٢١٠
		(٨) فى بقاع المعادن	٢١١

